

امتزاج الاحاسيس للأستاذ عبد الرحمن شكرى

قال المتنبي :

والذل يظهر في الدليل مودة وأود منه لن يود الأرقم
وأحسب أن المتنبي إنما أراد أن يصف الدليل المداحي الذي
يظهر المودة ويخفي الضغينة والمداء ، فيتودد ويتذلل حتى ينال
من خصمه . وهذه صفة شائعة في ذوى الكيد والكر والدهاء .
ولكن هناك صفة أخرى في النفس الانسانية تشبه هذه الصفة
بعض الشيء ، وهى صفة المحبة والمودة التى يحسها الخائف إحساساً
حقيقياً لا مداواة فيه إذا عجز عن مخاف منه وألف الخوف
فأزالت ألفة الخوف غلواءه ، وأزالت الرغبة فى التخلص منه ،
وأبعدت هى والمجز أمل الانتقام من أجله ، فتحول ارادة المحافظة
على الحياة ذلك الخوف المألوف محبة أو مودة تحاول بها نيل الزلفى
لدى الانسان المخوف من طريق الاحساس الصادق بالمحبة أو المودة ،
وتحاول أن تسل بها من قدرة المخوف حمة البغض وسم الضغينة ،
لأن ارادة المحافظة على الحياة تعلم أن مودة الرياء ومحبة التفاف قد
لا تقنع ، وقد تنكشف ويشف ثوب الرياء عما تحته فينال الخائف
الرائى شراً إذا انكشفت مداواته وعرفت مداخته ، ومن أجل
ذلك تبالغ ارادة المحافظة على الحياة فى الحيلة والحذر ، فتحول
الخوف من الانسان المخوف الى حب له أو مودة كى تقننه وتثق
بواذر شره ، وهى أيضاً تحاول أن تقنع بتلك المودة نفس من يحسها ،
وتفهمها أن لا داعى لليأس من الحياة كى لا يرهقها الخوف
والياس ؛ وهذا أمر مشاهد إذا قرأ الانسان سِفراً الحياة
وتقصى البحث فى تكوين النفوس

وهذه المحبة قد تزول وقد تبقى بعد زوال أسباب الخوف ،
وقد تقوى أو اصرها بعد الرهبة ولا سبباً إذا حلت الرغبة مكان
الرهبة ، ووجدت النفس منفعة دينوية أو نفسية لها عند من
زالت أسباب الخوف منه ؛ وقد تنقلب تلك المحبة إذا زالت
أسباب الخوف مقتاً ورغبة فى الانتقام ، فيحسها الباحث أنها
لم تكن إلا مداواة وتفاك ، وهى قد تكون ذلك ، وقد تكون
كما شرحتنا محض المودة والشعور الصادق بها ، لأن احساسات

الامبراطورية على أوروبا زهاء عشرة أعوام
وقد رأينا كيف اجتمعت أوروبا الغربية ، وفى مقدمتها
انكلترا ، أثناء الحرب الكبرى ، لتحطيم العسكرية البروسية ،
التي وثبت تهديد العالم بأطماعها الجائشة فى السيادة والاستعمار ،
وكيف لقيت مصرعها بعد حرب كانت أروع ما شهد التاريخ
والآن يبدو الخطر الفاشستى فى الأفق ، وتندد العسكرية
الفاشستية الجائعة بتحطيم التوازن الأوروبى فى شرق أوروبا وفى
وسطها ، وتتحدى بالأخص سيادة انكلترا البحرية فى البحر
الأبيض ؛ وقد زادها انتصارها فى الحبشة زهواً ومجداً ، فهل
تصبر أوروبا ، وهل تصبر انكلترا بنوع خاص حتى يتفاقم الخطر
الفاشستى كما تفافم الخطر البروسى قبيل الحرب ؟ هذا ما لا نعتقد ،
وفى يقيننا أن الامبراطورية البريطانية تناهب لحوض ذلك
الصراع التقليدى الذى حرصت دائماً على خوضه لتحطيم ذلك
الطينان المسمى الجديد الذى يهدد سيادتها ومصالحها الحيوية
فى البحر الأبيض وفى شرق أفريقيا ، وإذا كانت السياسة
البريطانية ما زالت تبدو بعض الفتور والتردد فى العمل الحاسم
فذلك لأن مناصير الحرب والتسلحات الحديثة قد اتخذت وجهة
جديدة ، ولم تعد السيادة البحرية وحدها كافية لأن تملى بريطانيا
كلها ؛ ومن تقاليد بريطانيا الماثورة أنها لا تتمتع بالحوادث ،
ولا تسارع الى قبول التحدى الطائش ؛ وبريطانيا ترز اليوم
أقدار الحرب والتفان بميزان جديد لم تستقر عوامله بعد ؛ وقد
يمضى وقت آخر قبل أن تنزل بريطانيا الى ميدان العمل الحاسم
قد تستطيع الفاشستية الجائعة فى نشوة ظفرها المزعوم ، أن
ترزعج أوروبا وانكلترا ، مدى حين بمشاريعها ووعيدها ؛ ولكن
الفاشستية تخطئ . بلاريب إذا هى اعتقدت أن الظفر ميسور فى
ميادين أخرى غير الحبشة ، وأنها تستطيع فى مكان آخر من
أوروبا ، أو افريقية ، أن تستعمل وسائلها العسكرية المجرمة فى
تحقيق أحلامها الرومانية ، دون عقاب أو وازع ؛ وهنالك حقيقة
لا ريب فيها ، وهى أن الفاشستية قد بثت بمسلكها وغرورها
ووعيدها مخاوف ما كان اغناها عن بنها ، وأنها سترغم بلاريب ،
فى القريب الماثل ، على خوض الصراع الحاسم ؛ وليس من
ريب فى أنها ستسحق فى هذا الصراع ، كما سحق كل عسكرية
أوربية جاعمة من قبلها

أو تفكها أو أراحة وترفيها ، ويمتتون من لا يماثرهم على هذه الخلال ، وربما كان في قولهم شيء من الحق والصواب ، وربما كنا نزهد في الحياة لو كانت نفوس الناس على حال واحدة لا تتغير ، فإن الحال التي لا تتغير مدعاة السأم والملل كسأم الذي يعيش في مكان قفر موحش لا يرى منه إلا مظهرا واحدا لا يتغير في أرضه أو سمائه

ولعل من أشد العقوبات وأفساها أن يحكم على إنسان ألا يأكل طول حياته غير السكر ، فهو قد يشتهي في أول الأمر ، فإذا طال به العهد اعتراه السأم والملل ؛ وكذلك ربما كان الجفاء مدعاة إلى التمتع بالأخاء ، وقلة الاكتراث مدعاة إلى التمتع بالأكرام ، والبغض حافزا إلى استمرار الحب ، كما أن اللذة لا يحبسها إلا من يستطيع الاحساس بالألم . وهذه فلسفة لا شك فيها ، ولكن الكثير من أمراض النفوس تأبأها ، إما لأنها مرهقة الحس فلا تنسبها اللذة الألم والأخاء الجفاء ، وإما لأنها إذا أحست ألما أو عانت جفأ أو قاست عداء لا تطمئن إلى زواله ، وقد تستبطن زواله فيذكرها اليأس والحزن

والجزن من تقلب النفوس وتلونها واختلافها نفساً عن نفس وحالا عن حال كثيراً ما يدرك الشاب القليل الخبرة بالحياة والنفوس الانسانية ، فهو لغرائه يحسب أن الحياة على مثل واحد يرتضيه ، وأن النفس على خلة واحدة يحمدها ، فإذا فطن إلى تقلب النفوس وتذبذبها وقلة استقرارها وجمعها بين الاضداد ، وإذا راعه كل ذلك بسبب غدر صديق أو جفاء جليس أو عبث عشير أو شر رفيق أو كيد أليف أو بغض حبيب كاد ينفطر قلبه أو كادت تنهار دنياه ، ولكن أكثر الشبان يستطيعون إذا طال بهم العمر ومد لهم فيه أن يوفقوا بين الحياة وبين مثلهم الأعلى ، أو تظن الحياة وما تدعو اليه على مثلهم الأعلى فتعجوه ويصير كل منهم في مودته مثل مقياس الحرارة (الترمومتر) ، فتارة ترتفع مودته إلى درجة الغليان ، وتارة تنخفض إلى ما هو تحت الصفر من درجات البرودة . وقس على المودة غيرها من الاحساسات

وإنما تصلح الحياة وترق وتعلج إذا لم يحج تذبذب النفوس المُشَلِّ العليا منها . وخير خطة للمرء ألا يحزنه تقلب النفوس واختلاط خلال النفس ، وألا يدع هذا الاختلاط والتذبذب بطنين على كل شعور نبيل ، فيجمع بين الاطمئنان ونشدان المُشَلِّ العليا إذا استطاع ذلك
عبد الرحمن شكرى

النفس تخرج وتتحول وتتشكل أشكالا وتلون ألوانا في السرائر ، فكان في النفس البشرية سر الكيمياء الذي حاول الكيميائيون في القرون الوسطى معرفته كي يتمكنوا من تحويل معدن إلى معدن ، فهذا التحول الذي وصفناه من كيمياء النفوس في معامل السريرة الخفية

وكما أن امتزاج الخوف والمحبة يشاهد في الاضداد البعداء من قوى مسيطر وضميف ذليل ، إذا تهيأت للأول أسباب القوة من جاه أو مال أو صحة ، وخذلت تلك الأسباب الذليل الضعيف وقهرته على أن يعتمد على صاحب المال أو الجاه ، فذلك الامتزاج يشاهد أيضاً في نفوس الأصدقاء والأوداء والأجباء والأقرباء . فكم من امرأة تحب زوجها حباً صادقا أساسه الخوف منه ؛ وكم من رجل يحب زوجته حباً صادقا يخالطه الخوف ؛ وكم من قريب يود قريباً ، وصديق يود صديقاً ودا تمازجه الرهبة أو الخشية

وإذا تفحصنا البحث وجدنا ما هو أعجب من ذلك ، فقد يمتزج البغض والحب في النفوس ، فقد يبلغ العاشق منزلة من العشق تشرف على البغض والمقت لمن يعشق ، وقد تتذبذب نفس العاشق بين الحب والبغض أو قد تجمعهما في وقت واحد ، فهي تارة تريد الخير لمن تحب ، وتارة تريد الشر ، وتارة تجمع بين إرادة الخير وإرادة الشر — ويمتزج الأخاء والجفاء في نفوس الأصحاب ، ويمتزج الاحترام والاحتقار في نفوس الجلساء والمتعاشرين ، كما يمتزج الحب والبغض في نفوس المشائق ، أو كما يمتزج الخوف والود في نفوس الضعفاء ، فترى الصاحب أو الجليس يبالغ تارة في إخطائه لصاحبه وجليسه ومماشره ويكثر من إكرامه وإجلاله ، وتارة يظهر له الجفاء وقلة الاكتراث أو العبث به أو الخط منه ، وتارة يجمع في مجلسه بين التقيضين

وكل إنسان يشك في هذه الصفة في النفوس ، ولكل إنسان نصيب منها قل أو أكثر وإنما يفتن إلى ما في نفوس الناس ولا يفتن إلى نصيب نفسه منها . وينقسم الناس في تدبر هذه الصفات ثلاثة أنسام : أناس يأبون الرضاء بها فيعتزلون الناس ما استطاعوا إلى الرزة سبيلاً ؛ وأناس ينقدونها ويودون لو تكون النفوس على حال واحدة ، ولكنهم يعرفون استحالة هذه الودادة فيقتنعون بما هو مستطاع من النفس والحياة ، وأناس لا يرون إعانت أنفسهم بالسخط على هذه الصفات النفسية ، ومنهم من يرى في تلون نفوس الناس وتقلبها وجمعها بين التقيضين رحمة